
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ذكريات

إبراهيم شبوح *

يرحم الله محمد بن تاويت الطنجي، فقد كان نمطاً فريداً فيمن عرفت من علماء الأمة. عرفته برحلة ابن خلدون قبل أن ألقاه، وسمعت باسمه في مصر مقروناً بالتكريم في أوساط المعنيين بالتراث وبالجامعة وبدار الكتب؛ يذكره من عرفَه وجهاً مشرقاً لعلماء المغرب. وسمعت الثناء عليه من أصدقائه ورفاقه : د. عبد العزيز الأهواني ود. جمال محرز وفؤاد سيد رحمهم الله وآخرين، يذكرون إحاطته العلمية وثقافته الإسلامية وصرامتَه العقلية وعمقَ نظره، ويأسفون على فراقه إلى بلاد الأتراك؛ فقد كان من الروّاد المؤسسين الذين جمّعوا تلك المادة الجيدة الوفيرة من نفائس التراث الإسلامي التي قام عليها معهد المخطوطات العربية في نشأته الأولى، وعرّفوا بها فيما عُرف بالفهرس التمهيدي.

---

* الأمين العام للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية – عمان

وكانت إقامته بمصر خصبة كل الخصب، غنية بمحتواها، فقد أدرك النخبة من رجال الجامعة المصرية، فأفاد معرفة مناهج البحث العلمي وتجديدَ وسائل التناول للقضايا؛ وأدرك الحياة الفكرية والعلمية والجامعة في أوجها، فأصبح أثيراً مقدَّراً بعلمه وأدبه عند أساتيذه : أحمد أمين وطه حسين وأمين الخولي الذي خصه برعاية متواصلة؛ وظهر متميزاً بمجلى علمه الذي برز في تحقيقه لرحلة ابن خلدون، الذي سيبقى «نقلة نوعية» في تاريخ ما يسمونه «تحقيق النصوص».

عرفته بإستانبول في أول رحلاتي إليها في نوفمبر 1961 فأحببت فيه بساطة العالم الحق وصفاء نفسه وكرمه وعُمقه الإنساني، وأحاطني برعاية لا أنساها فلم نفترق طيلة أيام مقامي، وبقيت تلك عادة تتجدد معنا إمّا التقينا. عرّفني بدار الخلافة مدينة وتاريخاً ومعالم وفكراً وخرجنا إلى أطرافها وجزُرها وشواطئها، وكان يتصادى مع كل ركن فيها لأنها تاريخ الإسلام ومفاخره، متمثلاً حياتها في أوجها ملماً بأسرار التاريخ العثماني ودقائقه.

وعرّفني على وجوه لا أنساها، أذكر منها المستشرق الألماني «ريشارد» الذي قضى بين مكتبات إستانبول خمسين عاماً وكتَب ملحقاً على بروكلمان، وكان وقتها في نحو الثمانين من عمره، واستصغر سني عن تقديم الطنجي، فأخذ ورقة وكتب فيها بيتاً من الشعر مهمل الحروف وطلب مني أن أشكله وأقرأه، وكان ذلك مدخل اعتباري وفاتحة الحديث بيننا.

وفي منزله بباشكطاش أطلعني على مكتبته، وعجبت وقتها من تنوعها وتمدّدها على فروعٍ شتى من المعرفة الإسلامية، وأدركت سرَّ مصادره الفكرية التي لمستُها ونحن نثير قضايا التاريخ والتراث في عاصمة آل عثمان، دار الخلافة، فالزمان عنده متلاحم وحركة المجتمعات تفرز التاريخ وتحمِّل أعباءه وثمرته الزمانَ المتجدد والمتنقل في المكان. لذلك فإن عروق المشكلات والقضايا الحديثة قديمة في الفكر والسياسة والمجتمعات. وقد قال لي : إن مكتبته متصلة كلها بمقدمة ابن خلدون فلا يوجد فرع من فروع المعرفة التي تناولها إلا ولها أدلة وشروح أعدها فيها لإسعافه. وكانت حيرته كبيرة بفضل «الزَّايَرْجة» وقصيدة السبتي

فلا يفتأ يثيرها يتلمس فك غامضها، ومر بي ذات يوم في الفندق الذي أنزل به في بايزيد وبيده رسالة مخطوطة لا يخفي سعادته بها وأخبرني أنه وجدها بالصَّحَفْلار في مكتبة «مظفر بك» وفيها إجابات عن أسئلة استوقفته منذ عشرين عاماً، وذكر لي بالمناسبة أن الزمن لا يخيفه ولا يعنيه! فالمهم ألا يستعجل بغرض «نشر السبق» الذي أشاعه بعضُهم فأفسد المعرفة وشوه حقيقتها ولم يكشف عن خفايا المحجب الذي بقي على غموضه. وأذكر أنه عبَّر لي مرة ونحن نزور مقبرة السلطان محمود ونبحث بين قبورها الفخمة المهيبة عن أسماء قد نعرفها فانطلق يحلل منزلة أشباه العلماء الذين احترفوا العلم، وذكّر بعلماء ما وراء النهر الذين أقاموا مأتم العلم لما بلغهم بناء المدارس النظامية في بغداد، «واعتبروها مرحلة فاصلة بين تعلّق أصحاب الهمم بالمعرفة لذاتها لتحقيق كمالهم الإنساني وانتفاعهم بالعلم ونفْعهم به، وبين أن يتداعى الكسالى الطامعون في الكسب، ينشأون على أنماط محدودة تنفصل عن كلي المعارف وتنعزل وتهجر معهم علوم الحكمة الشريفة».

وكان في هذا الموقف المتشدد ينظر إلى العلماء الذين أدركهم لعصره وجلس إليهم بفاس خاصة، وتأثر بشمولية معرفتهم ودقة إلمامهم بما يجيدونه وتحليلهم لدقيق المسائل في الحكمة وعلم الكلام والحساب وعلم الهيئة وغير ذلك من علوم الإسلام.

كان يتردد إلى دمشق في أول الستينيات وأنا مقيم بها خبيراً بالمديرية العامة للآثار والمتاحف وكانت الصداقة والمودة بيننا ممتدة بالمراسلة واللقاء المستمر، وأذكر عن هذه الفترة أنه كان ذات يوم يتأبط محفظة منتفخة وهو عائد من المجمع العلمي العربي بالعادلية، وقال إنه كان عليه أن يسلمه للطباعة لكن بقيت فيه بعض المشاكل يريد بحثها وتحريرها، وأثار لي مسألة حسبَ أن يجد عندي حلّها، وهي نشأة الكتابة العربية كما ذكرها ابن النديم، فأفدته بما أعلم عن الأصل النبطي للخط، وعن النقوش القديمة التي تؤكد ذلك وبداية الجملة العربية فيها فكأن اندفاع الباحث الناشئ بما تعلمه ولقنه لم ينفعه، فقال إنه من الخير أن ينتظر أيضاً فربما ينتظره الجواب الشافي في مطاوي الكتب. وأطلعني على قطعة منه بخطه أفرد فيها النص مضبوطاً بدقة بعد أن

قابل نسخة تشمستر بيتي على نسخة إستانبول، وأثبت الفروق في حيز خاص. ثم عرّف بالمؤلفين والكتب وبالمصطلح تعريفاً مركزاً شاملاً وفيه إشارات لأرقام الرسائل والكتب المخطوطة بمكتبات تركيا؛ وذكر لي أنه استفاد كثيراً من الكتاب الذي صنفه الشيخ محمد الصفائحي ورتب فيه كل مخطوطات تركيا على المؤلفين؛ وأعتبر عمله في «الفهرست»، بالجدية والعلم الذي عرف بهما الطنجي من أجرإ مواقف المحققين العاملين في التراث، فقد اقتحم العمل فيه تحدياً لتأكيد معرفته الواسعة وقدرته على إنجازٍ كان يمكن أن يصرفه للأسهل الميسَّر وكان ملتزماً بنشره لمجمع دمشق، الذي يعتبَر النشر فيه تشريفاً لا يُثاب عليه.

وعرفت أنه يشتغل دائماً في أكثر من عمل، بحيث يتوقف عن الواحد إلى الآخر إذا أعوزته البيانات عن التوضيح؛ وصادف مرة أن صدرت في دمشق نشرة لكتاب لأبي حيان التوحيدي وهو «مثالب الوزيرين» فانزعج وكشف لي عن مساوئ العمل والتباس قراءة الشعر بالنثر على محققه، وقال إنه اهتم بالكتاب، وربما عاد إليه بهذه المناسبة. ودفعه التحدي إلى مراجعة ما بدأه وتفكيك النص وضبط تسميته؛ وعاد به بعد نحو شهرين محققاً وقدمه للأمير جعفر الحسني أمين المجمع وقتها فأُخرِج بأولوية تامة.

لقد وضع الطنجي بنشره لرحلة ابن خلدون مستوى جديداً في فن نشر النصوص لم يسبق إليه، وكان رِيادةً استعمل فيها وفرة المعرفة المتصلة بالنص على تنوعها الموسوعي ودقة الضبط بحيث قيَّد كل شاردة من فرق نصي أو معنىً، ونفذ إلى خفايا النص والنصوص المتصلة به لغة وفهماً ومجالاً. وقد أشار إلى «أن الشروح التي أثبتها هي نوافل تعبِّر عن خبرة خاصة بمقاصد المؤلف أو موضوع الكتاب». وكانت مقدمته الجامعة إثراءً لتلك الثقافة الموسوعية الملمة، ومن أدق ما تضمنته ترتيبُه للنسخ الخطية التي اعتمدها بعد أن توالد بعضها من بعض، وهو بذلك يطبق المناهج العلمية الحديثة في نشر النصوص كما تلقاها من الجامعة المصرية أيام الطلب، وأثَرُ دروس برجستراسر في منهج تحقيق النصوص لا يزال يتردد في رحابها. وقد فصل فروق

النسخ عن شروحه وتعليقاته لأنها من طبيعة خاصة ملتحمة بأصل النص؛ ولم تكن شروحه معتادة في أسلوبها وضغطها ودقة محتوياتها ووفرة مصادرها المعتمدة، فقد خرجت على ما تقدمها من الاستفاضة التي تشط فيها الأقلام، واقتصرت على اللباب، وكان معيار هذه القدرة الحقيقية في إدراك معاني النصوص تلك الكفاية العالية التي باشر بها شرح نصوص ابن الخطيب وما تضمنته من لغة وإشارات ومعارف ولفتات تاريخية و«توريات بمصطلحات العلوم التي كان يعرفها، وما أوسع ما كان يعرفه ابن الخطيب من العلوم» [تعريف له]. وجاءت تعريفاته بالأماكن والبلدان دقيقة في الغالب حاول جهده أن يجد للمسمىً وجوداً على الخارطات الحديثة معرّفة بخطوط الطول والعرض ولم يلجأ إلى الإشارة إلى المصادر المنقطعة غير المحددة إلا فيما لم يتضح له مما درس وانقطع، أو تحرفت تسميته فانبهم على القارئ قراءته. وكانت معرفته الواسعة بالعروض واضحة فقد استقامت له قراءة النصوص الشعرية أقوم استقامة، وهو ما تأكد له بعد ذلك عندما نشر في المرحلة التركية كتاب «المكاثرة».

وبلغت عنايته بالأصول أن جرد منها الكلمات والأسماء التي ضبطها المؤلف بخطه، ولو خالف نفسه بين ضبط وضبط، وأردفها في فهرس مهم بآخر نشرة الكتاب، وقد شجعني على مثل ذلك العمل عندما أطلعته بدمشق سنة 1961 على الفهرس الذي استخرجته من أصل كتاب برنامج ابن الفخار الرعيني الأندلسي للكلمات والأسماء المضبوطة بالشكل وبتوجيهه نشرتُه بآخر الكتاب، ولعله كان الأول الذي سنّ هذه السنة.

ورغم هذا الجهد الرائد في هذا المدخل المثالي الذي أقامه لتحقيق النص، فقد فاتته فوائت ووقع في مآخذ ليست بذات شأن يتصل بعضها باستكمال بعض الفهارس كفهرس المصادر والمراجع، وتعابير ابن خلدون التي تميز أسلوبه في الكتابة. وربما كان أهم ما ينتظر من مقدمته الجيدة بحث نشأة نص «التعريف» نفسه - وهو تساؤل ما زال قائماً - هل كتبه بآخر النسخة الحفصية التي لم يسبق لها أثر، أم أنه بدأ في تحريره بعد الهجرة وضمنه سيرته الذاتية على عادة علماء

الشرق. وذلك مثل هذه التراجم التي لم يعرف المغاربة والأندلسيون منها غير فهارس وبرامج الشيوخ والمرويات. وهي من باب توثيق السند العلمي أو الرحلات التي تجمع بين التحصيل وتوثيق الأسانيد والجغرافيا الوصفية.

أذكر أني طلبت إليه ذات مرة أن أزور معه مكتبة كوبريلن زاده وهناك انصرف كل منا إلى عناوين يطلبها ويتأملها. واستوقفتني نسخة قديمة من كتاب الرخامة لثابت بن قرة الحراني بخطوط القرن الرابع الهجري. وأفادني ونحن نتحادث في طريق العودة أنه يجيد صنع الرخامة ووضعها، وقد درس أصول علم الهيئة والفلك والرخامة على الشيخ عبد الحي الكتاني أو الشيخ العلمي - لا أذكر أيهما - في فاس؛ وأفاد أنه يهتم بكتاب يحققه على نسخة نادرة في مكتبة الفاتح هو كتاب «تحديد نهيات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» لأبي الريحان البيروني. وأخذ يتحدث - حديث العالم الواثق - عن الرصد وجهد علماء المسلمين المشترك في اكتشاف وتدقيق أوضاع الأجرام العليا وتجاوزهم لمجسطي بطليموس وشروحهم عليه؛ وقد ظهر الكتاب بعد فترة وجيزة مجْلى لثقافته الموسوعية ومتانتها.

لقد كانت أيام إستانبول ودمشق وبيروت أياماً لا تنسى، ففي ذاكرتي صورة لا تغيب، صورة هذا العالم المتفرد بجملة أشياء لم تجتمع لغيره، فقد وعى ثقافة أمته الإسلامية وروحها وعلمها؛ وعاش زهرة حياته يصارع العزلة والصمت الذي يلفه ولا يجد لعلمه سائلاً، ويدرك الذين أحبوه وأحبهم أنه كان إلى وفائه وكرمه وحسن لقائه نقاداً للرجال شديداً في أحكامه على قاعدة الجرح والتعديل. وقد سمعت رأيه في أسماء ملأت آذاننا، وتعجبت ثم إذا هو لم يتجاوز حقيقة الأشياء.

يرحمه الله، فقد كان من مفاخر المغرب، ومن أشمل وأدق علماء التراث الإسلامي.

إبراهيم شبوح
عمان 15\5\1997